- ٢ -

الموت

الموت شئ طبيعى. الموت هو موتنا نحن ومع ذلك لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين. المهم أن نستمر فى الإبحار. الحرب تواجه الإنسان بالموت وتجبره على الاعتراف به. الموت كدافع للتفكير. الموت عند البدائى. فكرة الروح والخلود والشعور بالذنب. لاشعورنا البدائى تفضحه الحروب.

* * *

والعامل الثانى الذى أرجع إليه سبب إحساسنا الحالى بالغربة فى هذه الدنيا التى كنا نظن فى يوم من الأيام أنها دنيا حلوة ومناسبة لنا هو الاضطراب الذى حدث فى نظرتنا للموت، وكنا حتى الآن متمسكين أشد التمسك بتلك النظرة.

ولم تكن نظرتنا نظرة سليمة أبداً، وكنا بالطبع نسلم بأن الموت هو النهاية الضرورية للحياة، وأن كل واحد منا مدين للطبيعة[1]، وينبغى أن يتوقع أنه فى

(١) فرويد من الفلاسفة الماديين، وهو يكتب الطبيعة بالحروف الكبيرة كما لو كانت اسماً آخر من أسماء الله، وبذلك يدرج فرويد نفسه ضمن الطبيعيين، والواقع أنه من المتأثرين بداروين ولامارك ونظرية النشوء والارتقاء، وكان فى آرائه الفلسفية متخلفاً كثيراً عن عصره، ودائم الإصرار على أفكاره التى كونها لنفسه فى فترة الشباب، وكثيراً ما كان يباهى بإلحاده، ولكنه فى حياته الخاصة كان شديد الاعتزاز بيهوديته. (الحفنى)

يوم من الأيام سيوفى الدين، وبالاختصار أن الموت شيء طبيعى لايمكن إنكاره ولا سبيل إلى الإفلات منه ومع ذلك فقد تعودنا أن نتصرف كما لو كان الأمر على خلاف ذلك، ونظهر من السلوك الواضح ما يُستشف منه أننا قد استبعدنا الموت من الحياة ووضعناه على الرف وأخرسناه، وصرنا كما يقول المثل، نحاول التفكير فى أشياءأخرى تصرفنا عن التفكير فى الموت. وبالطبع فإن الموت الذى نتوجه بالحديث عنه هو موتنا نحن، والواقع أننا عندما نفكر فى الموت لا نفكر فيه بوصفه موتنا نحن، وكلما تخيلناه تدافعت صوره فى مخيلتنا بوصفنا متفرجين، ولذلك فإننا قلنا من خلال التحليل النفسى أننا فى أعماقنا لانعترف بأننا سنموت، وأننا بمعنى آخر نعتقد فى لاشعورنا أننا خالدون. أما عن موت الآخرين، فكل إنسان متحضر يتجنب بقدر المستطاع أن يتحدث عن موت الآخرين على مسمع منهم. بل إنه لا يتصور نفسه يتمنى موت الآخرين دون أن يتهم نفسه فى مشاعره ويصف نفسه بالقسوة وسوء النية. اللّهم إلا إذا كان طبيبا أو محاميا أو شيئا من هذا القبيل، وكان عليه بالطبع أن يتعامل مع فكرة الموت من وجهة النظر المهنية. ومن غير ذلك فلن يسامح الإنسان المتحضر نفسه إذا تطرق تفكيره إلى تمنى الموت للآخرين، خاصة إذا كان فى موت الآخرين بعض النفع له كأن يحصل على الحرية أو يكسب بعض المال أو يفوز بمركز من المراكز. ومع ذلك فإن هذه الحساسية التى لنا تجاه التفكير فى الموت لم توقف يد الموت، وكلما طالتنا كان تأثرنا بالغا، وتقوضنا بتقوض آمالنا. ولقد تعودنا أن نؤكد أن الموت يأتى بالصدفة، فى حادث، أو بسبب مرض، أو عدوى، أو بفعل الشيخوخة، وبهذه الطريقة فى

التفكير كشفنا عن محاولتنا التعديل من معنى الموت، فبدلا من النظر إليه كضرورة اعتبرناه حادثا وعَرَضًا. وتبدو فكرة موت الآلاف فى نفس الوقت فكرة بشعة جدا. لكننا لاننظر نفس النظرة لموت شخص واحد، ولربما كان شعورنا تجاهه شعور المعجبين بشخص استطاع أن ينجز عملا شاقا وينتهى منه. ونحن نؤجل نقده، ونتجاوز عن أخطائه، ونهتف قائلين الله يرحمه، ونجد فى هذا التعبير مايبرر أن نستعيد محاسنه ولا نذكر إلا ماينفع ذكراه. ونحن نراعى ذكرى الميت ونحترمها مع أنه لن يفيد من ذلك، واحترامنا للميت أعز علينا من الحقيقة التى نعرفها عنه، بل إن هذا الاحترام بالنسبة لمعظمنا أعز علينا من اعتبارنا للأحياء.

وتبلغ هذه النظرة التقليدية للموت ذروتها عند إنسان اليوم المتحضر فيما نشهده من انهيار تام نصاب به كلما اختطف الموت شخصا نحبه، كأن يكون أحد الوالدين أو زوجا أو أخا أو أختا أو صديقا عزيزا، فنحس كما لو أن الآمال التى نجيش بها، والكبرياء الذى يملأنا، والسعادة التى تغمرنا، كلها قد دفنت فى القبر معه، ولن يعزينا فيه شىء، ولن يعوضنا عنه أحد، ونتصرف كما لو كنا غير متحضرين ننتمى للقبائل الهمجية التى كانت إذا مات أحد أفرادها حكمت على أحبائه بالموت معه.

ومع ذلك فلقد كان لموقفنا هذا من الموت أثره القوى على حياتنا، فما لم نشعر أن أعز ما فى لعبة الحياة، وهو الحياة نفسها، معرض للخطر، فإن الحياة تفقد ثراءها، ولن تثير اهتمامنا. ونحن نباعد بين أنفسنا وبين الخطر، ولا نعرض أنفسنا للخطر، لأننا نعلم مدى حب الآخرين لنا ومدى مايمكن أن

يصابوا به من الحزن علينا، ولذلك أيضا فنحن نبعد الخطر عن أحبائنا، ولا نقوى على التفكير فيما يمكن أن تفعله الأم بدون ابنها، والزوجة بلا زوجها، والأطفال من غير أبيهم، فيما لو نزلت بهم كارثة. وإذن فالإنسان يميل إلى استبعاد شبح الموت عن تفكيره، وإلى إسقاطه من حساباته، والمهم عنده كما يقول المثل أن يستمر فى الإبحار ولا يهم بعدها إن عاش أو مات [1].

ولذلك كان طبيعيا، نتيجة لما سبق، أن نجهد لتعويض أنفسنا عن هذا الإجداب فى الحياة[2]، بأن نصوغ عالما من الأدب، سواء فى الرواية أو المسرح، نصور فيه شخصيات تعيش الحياة ولا تخشى الموت، وتعرف كيف تختار المنية التى تناسبها، وأخرى لا تخشى الموت، بل وتختاره لغيرها. وفى الأدب وحده يمكن أن نواجه الموت بأن ندخل كل تجارب الحياة ونخرج منها سالمين لم تصب منها حياتنا بأى أذى.

وواضح أن هذه النظرة التقليدية إلى الموت لابد أن تكتسحها الحرب، فالحرب تواجه الإنسان بالموت وتجبره على الاعتراف والإقرار به، لأن الناس فى الحرب لايموتون بالآحاد، بل بالعشرات فى وقت واحد، بل بعشرات الألوف فى اليوم الواحد. ولم يعد الموت صدفة، رغم أنه يبدو كذلك حينما تصيب رصاصة بالذات هذا الرجل دون ذاك، لكن الذى يعيش ربما تصيبه بكل سهولة رصاصة أخرى، ومن حصيلة كل الاحتمالات لا يكون ثمة داع

---

(1) Navigare necesse est, vivere non necesse.

(٢) يشير فرويد إلى أن الفن خلاص من الحياة. (الحفنى)

للقول بالصدفة، وبانتفاء الصدفة تستعيد الحياة أهميتها ومغزاها، وتكون للإنسان نظرته المغايرة إليها.

ولقد قلت إنى أعتقد أن ما أصاب عقولنا من بلبلة، وطاقاتنا من شلل، وهو مانحسه فينا عموما اليوم، إنما يرجع إلى زعزعة الحرب لآرائنا القديمة فى الموت، واستحالة أن تكون لنا نفس هذه النظرة، وعجزنا عن أن تكون لنا نظرة جديدة، وربما نستطيع أن تكون لنا هذه النظرة لو توجهنا بالبحث سيكولوجيا إلى نظريتين فى الموت، إحداهما كانت للشعوب الأولى قبل التاريخية، والأخرى ما تزال نظرة كل منا وإن بدت متخفية وحاولت أن تتستر من الوعى وتغوص فى أعمق أعماق طبقات الحياة العقلية.

ولقد كان للإنسان البدائى موقفا ملفتا من الموت، ولكنه موقف تميز بالتناقض ولم يكن فيه أدنى اتساق، فلم يكن الإنسان البدائى، من ناحية ينظر إلى الموت نظرة جدية، وكان يسلم بأنه نهاية الحياة ويتعامل معه بهذه الصفة، ولكنه كان من ناحية أخرى ينكر الموت ويسقطه من حسابه. ويرجع هذا التناقض أساسا إلى التضارب فى مواقفه من موت الآخرين والأغراب والأعداء ومن موته هو نفسه. وهو لم يكن يعترض أن يموت الآخرون طالما أنه يكرههم، فموتهم معناه إزالتهم من الوجود وهو لايمانع فى ذلك. ولم يكن الإنسان البدائى يعتقد أو يتصور أنه سيموت حقا، مثله فى ذلك مثل إنسان اليوم. ولكنه فى حالة واحدة فقط.. كان يواجه الموقفين المتناقضين، ورغم أنها حالة فريدة إلا أن نتائجها كانت بعيدة الأثر، ولم تكن تعن له إلا عندما يموت له شخص عزيز عليه، كأن يكون زوجة أو طفله أو صديقه،

شخص من نويه يحبه حبا جما مثلما نحب نحن نوينا، فالحب ليس وقفا علينا وحدنا، ولكنه قديم قدم شهوة القتل. ومن ثم يتعلم من الثكل الذى يصيبه فى العزيز أنه هو نفسه ليس بمنأى عن الموت، وهو درس لم يكن يتقبله بسهولة، وكان يثور عليه بكل كيانه، ولم يكن يصدق أن العزيز قد مات لأنه فى الواقع كان يدمجه فى أناه، ويعتبره جزءا من نفسه التى يحبها، ومع ذلك كان من ناحية أخرى يحس إحساسا غامضا أن موت هذا العزيز له ما يبرره، فقد كان فى العزيز دائما جزء غريب مُعادٍ لم يكن قد استدمجه فى نفسه، وهنا نجد التفسير فى قانون ازدواجية الشعور الذى مايزال يحكم علاقاتنا العاطفية حتى اليوم، ولكنه كان أوسع تطبيقا فى الأزمان البدائية، وعلى هذا كان هؤلاء الموتى الأعزاء، كانوا أعداء وأغرابا، أثاروا فيه رغم حبه لهم قدرا من مشاعر الكراهية.

ويدعى الفلاسفة أن صورة الموت حيّرت الإنسان البدائى، وأن لغزه دفعه دفعا إلى التفكير، وأن تفكيره كان نقطة البداية لكل تفكير فلسفى على الإطلاق. ولا أظن الفلاسفة على صواب فيما يزعمون، وأحسب أنهم قد تزيدوا فى تفلسفهم، وأنهم لم يولوا الدوافع الحقيقية العناية الواجبة وأنا لذلك لن أشطح مثلما فعلوا، وسأتولى تصحيح ماأخطاوا فيه[1]، فلم يكن الإنسان البدائى، وهو يرمق جثة عدوه المطروحة فى الجوار، يرهق ذهنه بالتفكير فى

---

(١) لفرويد مقال بعنوان «الطوطم والمحرم» (١٩١٣) حاول فيه استخلاص السمات التى يمكن أن تكون للشعوب البدائية، واستخلصها من قراءاته لروبرتسون سميث وأتكنسون وتشارلز دارون. (الحفنى).

لغز الموت والحياة، لكنه كان يزهو بما حقق من انتصار. ولم يكن يثيره لغز الموت، ولا أى موت، ولكنه كان يرفض تقبل موت العزيز، وتتضارب إزاءه مشاعره، فهو من جهة يحبه ويعتبره جزءا من نفسه، ومن جهة أخرى كان إنسانا مغايرا ليس جزءا منه وهو ما يكرهه فيه. وهذا التقارب فى المشاعر هو الذى كان يطلق طاقة البحث فيه، وهو نفسه الذى أولد علم النفس، فالإنسان لم يعد فى استطاعته أن يستبعد الموت من تفكيره، لأنه ذاق أساه فى موت أحبائه، لكنه مع ذلك لم يستسلم تماما أمامه، ورفض أن يعترف به بشكل كامل، لأنه كان مايزال يتصور أنه هو نفسه مقدور عليه الموت، ولذلك فقد تحايل على فكرة الموت وأقنع نفسه بموقف متوسط، فقد تقبل الموت كحقيقة، وأقر بحقيقة موته هو نفسه، لكنه رفض أن يعترف بأن الموت نهاية الحياة، مع أنه ما كان ينبغى أن ينتهى إلى هذه النهاية، لأن عدم الإقرار بأنه نهاية الحياة معناه أنه ليس نهاية الحياة لعدوه مثلما هو ليس نهاية الحياة له هو نفسه. وعلى أى حال فقد تصور أن الميت تخرج من جسده أشباح، واختلط الأسى على الفقيد العزيز بالراحة لموته باعتبار أن الفقيد لم يكن بتمامه امتداداً له، فقد ظل به جزء يستعصى عليه دمجه فيه، جزء مغاير له أجنبى عنه، وهذا الجزء الغريب عليه هو الذى شرح صدره لموته، وملأه ذلك إحساسا بالذنب، وجعله الإحساس بالذنب، يتصور روح الميت التى غادرت جسده روحا شريرة، وتخيلها عفريتا مرعبا، ولم يكن يعتقد فى أول الأمر أن الميت تخرج منه روح واحدة، ولم يكن أمامه إزاء ما يلمسه من تغييرات قد استحدثها الموت إلا أن يؤمن أن الإنسان جسد وروح، وقدمت له مخيلته

تفسيرا لكل مايحدث، ولأنه يذكر المتوفى وسيظل يذكره، صارت الذكرى الأبدية أساس تصوره لأنماط الحياة الأخرى بعد الموت ، فتخيلها حياة أبدية تتجاوز الموت، ولكنه لم يجهد ذهنه فى أول الأمر فيما يحتمل أن تكون عليه هذه الحياة، وظل يحفظ لها فى نفسه تقديرا خاصا، ثم جاءت الأديان المختلفة من بعد لتصور هذه الحياة الأخرى فى صورة أكثر إغراء، وقارنتها بالحياة الدنيا، ووصفتها بأنها الأصدق، وأن الحياة الدنيا حياة زائفة مآلها الفناء. وكان طبيعيا لنظرة ترد هذه الحياة إلى عالم أسبق عليها، أن تتصور الحياة تعود إلى الأجسام بعد الموت، وأن الأجسام تقوم يوم القيامة، وغاية هذه النظرة أن تُفقد الموت معناه كنهاية للحياة[1]، ومن ثم نرى أن إنكار الموت الذى نحسبه من تقاليد هذه الحضارة ليس سوى شئ نشأ مع الشعوب البدائية الأولى.

---

(١) ننبه إلى أن فرويد ملحد رغم تذكيرى الدائم باعتزازه بيهوديته. واليهودية التى يعتنقها ليست ديانة بقدر ما هى نظرة فلسفية ورؤيا خاصة للحياة هى سمة الشعب اليهودى، أو هى تراث فرويد الذى ينتسب إليه. وفرويد عندما ينسب نفسه إلى موسى يقصد أن موسى هو مؤسس الشعب اليهودى، أو أنه البطل القومى لليهود. وهو يتناوله كمنظر دينى فى عصر كان التنظير فيه للدين، وكان الدين ظاهرته. وعندما يناقش فرويد ظاهرة موسى فى كتابه «موسى والتوحيد» (من ترجمتنا) لا يناقشه إيماناً بموسى كنبى مرسل، لكنه يناقشه إيماناً بموسى كمنظر عظيم لمرحلة من مراحل الحضارة هي المرحلة الدينية التوحيدية بعد المرحلة الدينية متعددة الآلهة، ومن ثم فتعامل فرويد لموسى واليهودية تعامل واقعى مادى وليس تعاملا ميتافيزيقياً، واعتقاده فيهما اعتقاد فى تراث ينتسب إليه حاضره ويمتد أثره إلى المستقبل، وأحسب أن هذا هو ما يقصده عندما يقول إنه موسوى أو إسرائيلى أو يهودى. (الحفنى)

ولقد أمعن البدائى التأمل فى جثمان فقيده الغالى، وتولدت لديه فكرة الروح، وخرج بفكرة الخلود، وتفجر عنده الإحساس بالذنب أو جزء كبير منه، فالواقع أن الشعور بالذنب يضرب بجذوره إلى أعمق من ذلك، بل لقد تولد لديه، أكثر من ذلك، أول تفكير فى الأخلاق، وكان تفكيرا غامضا، وكانت أول وأهم المحظورات الخلقية التى ذهب إليها ضميره المتيقظ :«إنك لن تقتل» ونشأ تحريم القتل كرد فعل ضد شعور الكراهية الذى أشبعه، والذى أحس به يكمن متسترا خلف الأسى الذى كان يعتمل فى نفسه على فقيده الغالى ، وامتد رد الفعل ضد شعور الكراهية ليشمل كل الأغراب ثم الأعداء. ولكن إنسان اليوم لا يعرف هذا النوع من الشعور بالذنب، وعندما ينتهى هذا الصراع المجنون الذى تتسم به الحرب الحالية، يعود كل بطل من أبطالها منتصرا، ويتوجه إلى زوجته وأطفاله منتشيا بلا إبطاء، لا يعكر صفوه العقلى التفكير، من أى نوع، فى أعدائه الذين سفك دماءهم فى مواجهة مباشرة، أو عن بعد باستخدام أسلحة الفتك. وإننا لنلاحظ أن الأجناس البدائية ماتزال موجودة حتى اليوم وتتصرف مع أعدائها بطريقة تختلف عن طريقتنا، فعندما يعود البدائى من أرض المعارك منتصرا لاتسمح له قبيلته أن يطأ قريته بقدميه، ولا أن يقرب زوجته مالم يتطهر مما ارتكب من أعمال القتل فى الحرب، وتستغرق كفارتها فى كثير من الأحيان الوقت الطويل، وترهقه أيما إرهاق. وقد يقال إن مرد هذا كله الاعتقاد فى الخرافات، وهو قول حق طالما أن الإنسان البدائى كان يرجع من الحرب وهو يحمل معه الخوف من انتقام أرواح مَنْ سَفَكَ دماءهم. لكننا نرى أن أرواح الأعداء الذين كان يعتقد أنهم يتعقبونه لم تكن سوى

ضميره هو نفسه وقد أزعجه الدم الذى سفك والإثم الذى ران عليه، ونرى أيضا أن مانصفه بأنه خرافة لم يكن سوى خيط رفيع من الحس الخلقى افتقدناه نحن المتحضرين[1].

ولنترك البدائيين الآن ونعد أدراجنا إلى اللاشعور من حياتنا العقلية. ولسوف اعتمد على منهج التحليل النفسى فى البحث فيما أذهب إليه من آراء، وهو منهج أعتقد أنه الوحيد الذى يصلح لسبر أغوار اللاشعور، ولسوف أحاول أن أتبين موقف اللاشعور من مشكلة الموت، وأعتقد أن موقف لاشعورنا هو بالتقريب نفس موقف الإنسان البدائى، وأرى أن إنسان عصور ما قبل التاريخ مايزال يعيش فى لاشعورنا دون تغيير، وأن لاشعورنا لهذا السبب لا يصدق أن الموت سيجرى عليه، وهو يتصرف لذلك كما لو كان من الخالدين. وأقصد باللاشعور الطبقات الأعمق فى العقل التى تتألف من الدوافع الغريزية. ولم يعرف اللاشعور السلبيات أبدا، وهو لذلك لا يعرف أنه سيموت لأن الموت معنى سالب، ومن ثم كانت كل غرائزنا لا تعرف الموت، ولا تخشاه تبعاً لذلك، وربما كان ذلك هو السر الكامن وراء البطولة. فالبطولة بالتفسير العقلى قرار يتخذه الشخص بأن حياته ليست أثمن عنده من بعض المثل العليا العامة المجردة. غير أن هناك نوعاً آخر من البطولة أكثر شيوعاً فى رأيى، وهى بطولة غريزية تلقائية لا تصدر عن دوافع كالدافع السابق، وتتحدى الخطر، شعارها «لا شئ يمكن أن يقع لى». أو ربما كان هناك دافع

(١) كتاب فرويد «الطوطم والمحرم» ترجمة د. عبدالمنعم الحفنى.

فعلا وراء البطولة، لكنه فى الواقع مجرد ذريعة يتوسل بها صاحبه ليزيل التردد الذى قد يؤخر العمل البطولى الذى يوافق لا شعوره وينسجم معه. أما خوفنا من الموت، وهو خوف يسيطر على حياتنا أكثر مما نعرف، فليس فى الحقيقة سوى شئ ثانوى، مرده عادةً الشعور بالذنب.

ونحن حالياً نصادق على موت الأغراب والأعداء، ونسلمهم إليه فوراً وبلا روية، تماماً كما كان البدائى يفعل، مع اختلاف فى الحالين، لكنه اختلاف له وزنه، فلاشعورنا يفكر فى القتل ويتمناه فقط لكنه لا يقوم بتنفيذ ما يفكر فيه ويتمناه. ولا ينبغى التقليل من هذا الفارق باعتباره فارقاً نفسياً وليس واقعة مادية ملموسة الأثر، لكن هذا الفارق النفسى له مغزاه وينطوى على ما هو أبعد من كونه فارقاً نفسياً، ولعلنا نلاحظ أننا نستبعد فى لاشعورنا يومياً، بل وكل ساعة، كل من يقف فى طريقنا، وننحى جانباً كل من يغضبنا أو يسئ إلينا.

وليس قولنا «الله يأخذه»، الذى يجرى على ألسنتنا كثيراً، من باب الاستهزاء بمن لا يعجبنا حاله، إلا طريقه أخرى للتعبير عن أمنية تجيش بلاشعورنا ونتمناها جادين فى التمنى.

وإذن فلو شئنا أن نحكم على أنفسنا بما فى لاشعورنا من أمانى ورغبات، لقضينا بأننا، كالبدائيين، لسنا سوى عصابة من القتلة، مع ملاحظة أن أمانينا تعوزها الطاقة على التحقيق التى كان البدائيون يزحمونها بها، ولو كانت الأمانى كلها قابلة للتحقيق لكانت البشرية قد انمحت، وانمحى معها من الوجود أطيب وأحكم الرجال وأنظف وأرق النساء.

ولا يجد التحليل النفسى أذنا صاغية لدى عامة الناس عندما تطرح عليهم هذه الأفكار، وهم يرفضون تصديقها كما لو كانت أقوالا للتشهير تكذبها التجربة الواعية، ويتعمدون التغاضى عن أية دلائل قد يكشف اللاشعور بها عن نفسه أو يفضح بها حاله أمام الشعور.

وتعلن لنا كما كانت تعلن للبدائى، حالة واحدة يحدث أن تلتقى فيها وتتضاد النظرتان المتعارضتان للموت، النظرة التى تعترف بالموت كنهاية للحياة، والنظرة التى تنكر أن الموت نهاية الحياة. وهذه الحالة الوحيدة هى نفسها الحالة التى كان البدائى فى العصور القديمة يصادف فيها النظرتين، وهى الحالة التى يموت لنا فيها إنسان نحبه، كأن يكون أباً أو زوجاً أو أخاً أو أختاً أو ابناً أو صديقاً عزيزاً، أو تتعرض فيها حياته للخطر.

ونحن من ناحية، نستدمج كل هؤلاء الأحباء فى ذواتنا فيصبحون جزءًا منا، ولكنهم مع ذلك يظلون أغراباً عنا بل وربما أعداء.

ويرفض عامة الناس أن تكون هذه هى حقيقة مشاعرهم من أحبائهم، بل ويعبرون عن اشمئزازهم الشديد من هذه الآراء، ويتذرعون بهذا الرفض وذلك الاشمئزاز لتبرير رفضهم لنظريات التحليل النفسى. ولكنى أؤكد هنا أنى لا أقصد إطلاقاً أن أحط من شأن الحب، ولم يحدث أبداً، لا عقلياً ولا وجدانياً، أن خلطت بين الحب والكراهية، لكن الطبيعة هى التى جعلت من الحب والكراهية توأمين متناقضين، حتى تجعل الحب يحذر الكراهية الكافية خلفه دائماً، وحتى تجعله يحدد نفسه باستمرار. ولربما كان بالمستطاع أن نقول

إننا مدينون بأجمل زهور الحب البشرى للمشاعر والأفكار التى نكونها كرد فعل للدوافع العدائية التى نحس بها تعتمل فى صدورنا.

ونخلص من كل ما سبق أن لاشعور الإنسان المعاصر لا يعرف أن الإنسان مقدور عليه الموت ويعيش بمعزل تام عن التفكير فى الموت، وأنه لاشعور معاد للأغراب كأعنف ما يكون العداء، وأنه منقسم على نفسه تزدوج مشاعره تجاه من يحب، فهو يحبهم ويكرههم فى نفس الوقت، وهو في كل ذلك يماثل إنسان العصر البدائى. ولكن الحضارة بموقفها التقليدى من الموت تدعى أنها قد نقلت الإنسان من حال البداوة إلى حال الحضارة وغيرت نظرته للموت، ولكن الحرب قد فضحت زيف هذا الادعاء، وكشفت عن الإنسان البدائى داخل كل منا، ودفعتنا دفعاً للتصرف وكأننا أبطال لا نعترف بالموت، وجعلتنا نعامل كل غريب عنا وكأنه عدو ينبغى أن نقتله أو نتمنى قتله، وتطالبنا أن نتجاوز حادثة موت أحبائنا. ولا يمكن أن تنتهى الحروب طالما أن شعوب العالم تعيش فى ظروف متباينة أشد التباين، وتنفر من بعضها أشد النفور، ومن ثم ستظل الحروب مشتعلة وتشتعل أبداً. فإذا كان الأمر كذلك ألا يحق لنا أن نقول إننا إذن ينبغى أن نرضى بواقع الحروب، وأن نكيف أنفسنا لها، وأن نعترف بأننا بموقفنا المتحضر من الموت نعيش، سيكولوجياً، بإمكانيات تتجاوز حدود طاقاتنا، وأننا لذلك يتبقى أن نراجع أنفسنا ونقر بالواقع، ثم أليس من الأوفق لو أننا نظرنا إلى الموت النظرة الواقعية التى ينبغى أن ننظر إليه بها، وكانت لنا عنه الأفكار التى ينبغى أن تكون لنا عنه، وأن نروض أنفسنا أكثر على موقف اللاشعور من الموت، وهو الموقف الذى

جهدنا حتى الآن أن نتباعد عنه ونخفيه عن أنفسنا؟ ولو فعلنا لكان ما نطالب به إنجازاً حقيقياً، رغم أنه قد يبدو رجوعاً للوراء ونكوصا للخلف، لكنه يستحق المحاولة لأنه يقوم على واقع الأمور، ولأنه يجعل الحياة أكثر احتمالا. ولعل احتمال الحياة، برغم كل شئ، هو أولى واجبات الإنسان. ومهما حاولنا التمويه على أنفسنا، فلن يفيدنا ذلك طالما أنه يجعل الحياة أشق احتمالا. ولنذكر المثل القديم : إذا كنت تريد السلم فلتستعد للحرب. ولقد حان الوقت أن نقوله بشكل آخر : إذا كنت تحتمل الحياة فلتستعد للموت.

* * *